

نحو خطة واعية

لإحياء

التراث الإسلامي

تحديد المصطلح ..

في مستهل تناوله للقضية قال : التراث في اللغة هو الميراث ، الإرث ، وقد ورد في القرآن الكريم صور واستقالات مختلفة تشير إلى إرث الأموال والمماريات ، وإلى إرث الصفات والمعنويات .. فمن الأول ﴿ ... فَمَنْ أَوَّلَ الْفَسَاءِ ﴾ (النساء : ١١) ومن الثاني : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرُوهُمُ الْمُغْتَابِ ﴾ (الاعراف : ١٦٩) . وهناك استخدامات مجازية أخرى توحى بأن الإرث متصل كقولنا : (اورثته التجربة بصرًا بالأمور) فهي هنا ثورت ولكنها لا تنقطع ، ولعل في هذا إجابة على من كره استعمال كلمة التراث خوفاً من معنى الانفصال والانقطاع .. وقد دخل هذا المعنى إلى الاصطلاح

ففي الاصطلاح : هل هو المخطوطات والكتب والآثار في المتاحف ، والمسوكات والمنعمات ، ووسائل الحياة ؟ الواقع أن هذا المفهوم ضيق جداً للتراث ، أما حقيقة التراث فهو تجربة الأمة على طول تاريخها ، وهو ثمرة احتكاكات الأمة وممارساتها على طول أجيالها ، في حروبها ومعافاتها وفي صلحها ، وما يشهده ذلك من امتعاضات واتجاهات وعواطف وانفعالات وما يشهده ذلك أيضاً من فنون وأداب وعلوم ، سواء أكان ذلك متوارثاً عن همة عادات وتقاليد أو كان متوارثاً شعاعاً ، أو متوارثاً مكتوباً .

الدلالة الحقيقية

إنه تيار متدفق مستعر بين أجيال الأمة يربط بعضها ببعض ويشد بعضها إلى بعض لا ينفصل عنها ، ولا يتفصل عنه ، هذا هو مفهوم التراث الحقيقي ، فمتحنته تجارب حتى من انفتست ، ولينظر إلى الفرد مثلاً : يمر الإنسان في حياته بمراحل صبا ، فبقاغا ، فغشباب ثم رجولة ، وشيخوخة ، وهو في كل مرحلة من هذه المراحل يحمل تجارب وخبرات ، ويحفظ منها ما يحفظ ويسقط منها ما يسقط ، ولكن

■ التراث روح ومعنى وحياة ، تيار يتدفق في أجيال الأمة على طول تاريخها ، يربط بين سلفها وخلفها ، وينقل للأجيال ثمرات قرائح الأجداد بما فيها من علوم وآداب وفنون واعراف وقيم وانماط وسلوك ونظم مجتمع ..

وتجديد هذه الروح مهمة واجبة لكل جيل من الأجيال ، يقوم بإحيائها فيكفل للتجربة استمراريتهما ، وللروح بقاءها .

وطبقاً لهذا المفهوم تصبح عبارة (غريلة التراث) بمعنى الإسقاط : مضللة إلى حد كبير ، فالأمة لا تسقط ولا تفقد ماضيها .

هل كان الأجداد لامتنا أن يبقى تراثها مخطوطاً بعيداً عن تشويبه المستشرقين وتلامذتهم ؟ ما هي حقيقة دورهم في ضوء وسائل الإحياء الأصيلة ؟ وكيف يمكننا حماية التراث روحاً وجسداً في غيبة من التنسيق والتخطيط وواقع تبدد الجهود ؟ وهل يمكن وضع خطة لكل ذلك حتى تستطيع الأمة الإسلامية أن تتبوأ مكانها في ريادة العالم ، وهي تملك مقومات النهضة ووسائلها ؟

في إطار الموسم الثقافي السادس الذي نظمه رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، عرض الدكتور عبد العظيم الديب الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة قطر لهذه القضايا في محاضرة بعنوان : [نحو خطة واعية لإحياء التراث الإسلامي] ■■■



● الاختيار معناه أولويات
● والغريزة معناها إسقاط

الدكتور عبد العظيم الديب

- تخرج في دار العلوم بالقاهرة وحصل على دبلوم عال في التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس .
- التحق ببركز تحقيق التراث القومي ونشره الذي قامت به وزارة الثقافة بمصر .
- اهتم بالمخطوطات والتراث منذ بداية دراسته ، واعد رسالتي الماجستير والدكتوراه في موضوعات متعلقة بالتراث .
- حقق ونشر كتابي امام الحرمين الجويني : البرهان والغياثي ويعدان من عيون التراث .
- يعمل حالياً أستاذاً مساعداً بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر .

محاضرة

من بين ما حصل يستقر في أعمقه شيء .. يظل معه في تلك الأتية يتخذ قراراً يكون لهذه التجارب - لهذا التراث - أثر في قراره .

بداية الأزمة

وارضح الدكتور عبد العظيم الدبيب أسل الفضية فإبان قناتاً :
إن الأمم قد تتعرض لغزوات ثاني في أشكال مختلفة : عسكرية ، ثقافية ، اجتماعية ، غزو في الوعي ، وغزو خارج الوعي ، مثلما عرض لامتنا .. بقول الاستاذ محمود محمد شاكر متحدتاً عما تم لآبائنا :

[... إن هذه الأجيال قد تم تعريفها تعريفاً يكاد يكون كاملاً من ماضيها كله ، من علومه وآدابها وفنونها ، وقد تم هتك العلائق بينها وبينه ، وصار ما كان في الماضي متكاملأ متماسكاً مُزقاً متفردة مبعثرة ، تكاد تكون خالية عندهم من المعنى ومن الدلالة ، ولأنه غير ممكن أن يظل التاريخ فارغاً ابداً ، فقد تم ملء هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون لا تمت إلى هذا الماضي بسبب ، وإنهم ليستقبلونه استقبال النظامي المخرق قطرات من الماء النعيم المثلج]

إن ما أصاب أمتنا من الغزو هو بسبب انقطاعها عن التراث ، ولم يحدث الانقطاع فقط بل وصل الأمر إلى استمداء آباء الأمة على تراثها ، يعيونه ويسبونه ... وحينما ينقطع استمرار تجربة الأمة ، ويضيع منها الطريق ، وحين تُلغى الإحساس بـماضيها ، وينتزع تاريخها من ضميرها ، ويذول أثره من مشاعرها وعواطفها ونفسها حينئذ تبدأ الأزمة .

لماذا الاهتمام بالتراث ؟

- يتميز الإنسان عن باقي الكائنات بعدة أمور :
● الإنسان هو الكائن الوحيد الذي خلقه الله سبحانه متنصباً قائماً ، وخلق باقي الكائنات منكفئاً ، ﴿ فَعَنَّهُمْ مِّنْ يُّنْثَىٰ عَلَىٰ بَطْنِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّنْثَىٰ عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّنْثَىٰ عَلَىٰ أَرْبَعٍ ... ﴾ (النور : ٤٥) .
- الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحتاج إلى حضارة طويلة ، وباقي الكائنات لا تزيد حضانتها عن ساعات أو أسابيع أو أيام .. وفي تقديري أن الإنسان في حضارة إلى الأبد : المدرسة حضارة ، والجامعة ، والمجتمع حضارة مستمرة ، لأنه يظل يتعلم تعليماً مستمراً ، أي يحوز خبرات .
- الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تطورت وسائل معيشته ، وجميع الكائنات منذ خلقها الله سبحانه وتعالى تعيش الآن كما خلقت أول يوم على الأرض ، تسكن وتاكل على النمو الأول نفسه ، على حين نجد الإنسان يترقى من عصر إلى عصر في وسائل حياته وما ذاك إلا لأنه (يرث) تجربة الأجيال التي قبله .. فهو (كائن ذو تاريخ) وبالأحرى (ذو تراث) ، أو (ذو ذاكرة) ، فالتراث ذاكرة الأمة ، الأمة نفسها .

ثم عرض المحاضر لتساؤل : لماذا لا نعيش حياة الحضارة المعاصرة ، ونعتقد عاداتهم ونُفِّمُ الأمور بـقيمهم ؟ ولماذا العناء في سبيل التراث ؟ ولماذا تراثنا بالذات ؟
مع أننا نقول : بعدم رفضنا لمنجزات الحضارة وعلومها ، فهي ملك لجميع الأمم ، تتوارثها كل أمة عن

الأخرى حسب دورتها الحضارية ، وتضرب إليها سنة التطور .. فإن تراث الأمم وتجربتها شيء آخر فعمها تدرب الفرد (الشعباني) على عادات الإنسان فلن يكون إلا فرداً ..

والمؤرخ البريطاني (إرنولد توينبي) كلمة في هذا المقام يقول :
[... إن هناك نوعين من السلوك تسلكهما الأمة أمام حضارة غريبة تهدد كيانها : إما أن تنقلوع على نفسها ، وإما أن تقلد الأمة الغالبة .

ثم يقول :
إن السلوك الثاني سلوك خطر ، فإنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور النهر الجارف ، ذلك لأن التيار سيصرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد .. ثم إن هذا السلوك يخلو من الإبداع ، والأخطر من ذلك أنه ينحصر في طبقة معينة صغيرة متحصرة في فئة صغيرة من مدعي الثقافة ، ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ...]

[... إن هذه الأمة ما تزال مرتبطة بتراثها ، وما يزال ضميرها لا يخطئها ، ما تزال تضرب بجذورها في الأعماق ولم تنس ذاتها ، فمنذ حوالي مئة وخمسين سنة تقريباً وقيادة الفكر والثقافة يكاد يكون كاملاً في يد طبقة منفصلة عن الأمة - هواها وبينها وقلدها وعقلها مع غيرها .. ومع ذلك ما تزال الأمة لا يحركها إلا إسلامها ، وتاريخها ...]

أوعية التراث ..

وللتراث أوعية وصور نذكر المحاضر أنها تشمل السخطوطات - ما طبع منها وما لم يطبع بعد - فهذه السخطوطات من أكبر أوعية التراث ، فهي ليست في

■ حينما ينقطع استمرار تجربة الأمة ويضيع منها الطريق وتفق الإحساس بـماضيها وينتزع تاريخها من ضميرها ويزول أثره من مشاعرها ونفسها حينئذ تبدأ الأزمة .

■ منذ حوالي مائة وخمسين عاماً وقياد الفكر والثقافة يكاد يكون كاملاً في يد طبقة منفصلة عن الأمة .. مع ذلك لا يحرك الأمة إلا إسلامها وتاريخها ...



● الدكتور
عبد العظيم الديب
الأمّة
لا يحركها
إلا إسلامها
وتاريخها ... ●



● أرنولد توينبي :
إن تقليد الأمّة
الغالبية ينحصر في
لغة صغيرة من
مدعي الثقافة ..
لكنها لا يمكن أن
تصبح حركة
جماعية .. ●

الصليبية والتتوية في الجناح الشرقي ،
والفرنجة في الأندلس في الجناح الغربي . تعاصرت
جميعها في وقت واحد .. التتار في أواخر القرن
السادس ، والفرنجة أواخر القرن الخامس ،
والصليبية أواخر القرن السادس ، وقبلها كانت
حركات الإغارة الفريية .. فلقد عاشت أمنا حياة
الجهاد طوال تاريخها ، وإن كنا نلخص هذه الحياة في
جمل فنشوها ، كزعم أن المسلمين أضاعوا الأندلس ،
بينما جهاد المسلمين في الأندلس امتد خمسمائة عام
قدموا فيها كل فداء ، ما تركوا شبراً إلا غرسوه
بالجماجم ، وغسلوه بالدماء .

حقيقة دور المستشرقين !

هذا التراث متتلاً في المخطوطات كيف انتقل إلى
أيدي المستشرقين ؟ كثير منه إن لم يكن كله أخذ غيلة
واختلاساً ، وأخذ بعضه من الحروب ، وأخذ من
الأندلس ما أخذ ..

ثم ماذا صنع المستشرقون بترائنا ؟

يذكر بعضهم أنهم احتفظوا به ، عاملوه معاملة
كريمة فوضوه في أماكن مكيفة ، وروموه ، وصنّفوه ،
وفهرسوه ، وقرأوه ، ثم بعد ذلك بدأ التحقيق ،
والنشر ..

يرى الدكتور الديب أن القول باستفادتنا من
جهود المستشرقين في جمع التراث وتحقيقه بدلاً من
ضياعه وحرقه كما ضاع واحترق الكثير منه ، قول
مردود فيقول : [كنت أتمنى أن يحترق ولا يقع في
أيديهم] وذلك أنه يرى أن ما نتج من الخطورة كان
أكبر بكثير مما توهم من الفائدة .

إن الشاء على ما فعل المستشرقون لا محل له ،
ومعها فعلاً فهو مردود عليهم غير مقبول منهم ، فكل
هذا سرقة ونهب ، لأنهم سرقوه ، وأخذوه غزواً
وخيانة ، وبالتالي فإن كل ما يرتبط على السرقة والنهب

تناخذ منه الإيجابيات وتترك السلبيات ؟
يرفض المحاضر هذه المثولة ويوضح أن عملية
الإحياء لا تكون باختيار الصواب من التراث لنفعل
مثله ، وترك الخطأ خوفاً منه .. فنحن نستفيد من
صوابه ومن خطئه ، بالقد نفسه وعلى المستوى
نفسه ، بل قد نستفيد من خطئه وسلبياته أكثر من
صوابه : فصوابه أو إيجابياته تطورت وتخطاها
الزمن ، وسبني فوقها ، ولكن خطاه وسلبياته
تظل إنذاراً يحذر وعلامة مرور على الطريق ، مثلما
يضع رجال المرور على الطريق سيارة محطمة عند
بعض المنحنيات لتكون إبلغ تحذير من كل
اللافتات يقول الشيخ محمود محمد شاكر :

« ... إن بعضاً ممن ينادون بغريبة هذا التاريخ
مضللون لنا .. إن الأمم لا نلقد ماضيها .. فلا يملك
أحد أن يقول : هذا نتركه وهذا نهتم به .. »
واستدرك قائلاً :

إن على الأمة العربية والإسلامية اليوم أن تبذل
جهداً كبيراً في جمع تراثها .. وإن تختار المؤلفات
ما لهُ قيمة .. ولا يتشابه مع غيره ، أعرف أن هذا أمر
بالغ الصعوبة .. ولكن علينا أن نفعل ..

الاختيار معناه أولويات ، والغريبة معناها
إسقاط .

تراثنا بين شرق وغرب

ولهذا الإحياء المنشود وسائل ، لكن قبل ذلك يجب
أن نتعرف على أماكن وجود هذا التراث وحجمه ، وماذا
بقي لنا من تراثنا المخطوط بعد الذي كان من التحريق
والنفيق والسلب والنهب والإتلاف ، وما بقي من
القوارض والعت ؟ يقول المحاضر :

بقي لنا ثلاثة ملايين مخطوطة موزعة بين مشارق
الأرض ومغربها ، ذلك بعد أن تعرض تراثنا ميكراً
للعنوان الحائد .. فقد وجهت لامتنا ثلاث ضربات :

ذاتها تراثاً ، وفي الأوعية كل الآثار والنقوش
والمسكوكات والمنعمات ، ووسائل العيشة
وأدوات الحياة والكتابات القديمة ونماذج
الملابس ..

مفهوم الإحياء

يرتبط الحديث عن التراث بمصطلح متداول هو
الإحياء ، هل يؤدي المصطلح الدلالة التي نريدها
من استمرارية التراث كتيار متدفق في حياة الأمة ؟
أم أنه تسلسل من خلال الأعداء ليحكمتها على تراثنا
بالموت ، ويكون البحث في التراث عملية إحياء
للموتى البس مصطلح ، تحقيق التراث ، هو
الأولى ؟

الإحياء فيما يراه المحاضر هو تجديد صور التراث
المختلفة وأوعيته المتنوعة ، وجعلها في متناول الأجيال
حتى تحيطها بما يجب لها من التقدير والإجلال ، كي
تعاود النظر فيها ، تتأملها وتتأملها ، فستلهمها في
حركتنا وانطلاقنا ، ولا نقول نحاكيها أو نشابهها :

« فنحن لا نتصور أن نعيش على طب الزهاوي
وابن النفيس ، ولا كيميياء جابربن حيسان
ولا بصريات الحسن بن الهيثم ، ولا رياضيات
البيروني ، ولا هندسة بني موسى والجزري ، كما
زعم بعضهم أننا بالإحياء نعود بالإسلامية إلى
الوراء ، وإلى عصور خلت ، إنما تعني بالإحياء أن
نعود إلى ماضيها وتاريخنا نستطلعها فندرسها
ونعيبه ، ونجعلها قائماً بذاكرتنا ، حباً في نفوسنا ،
وعندها سيكون أثره في واقع حياتنا تلقائياً
سرياً ... »

دعوى غريبة التراث ...

هل تقبل في ضوء هذا المفهوم ما يتردد حين ذكر
التراث من وجوب القيام بعملية غريبة ، والانتقاء منه ،

■ إن بعضاً ممن ينادون بغربة التراث مظلون لنا .. إن الأمم لا تفقد ماضيها ، فلا يملك أحد أن يقول : هذا نتركه وهذا نهتم به .

علمية في العالم الإسلامي تهتم بالتراث هذا غير الدوائر والهيئات الاستشرافية ، وغير الجهود الفردية .. واستطاع الأراد والهيئات والمستشرقون أن يخرجوا خلال عشرين عاماً حوالي (٩٥٠) كتاباً .. فإذا كان عندنا ثلاثة ملايين مخطوطة ، فإن هناك إحدى وخمسين ألف ستة أماناً لإحياء تراثنا .. وعن عملية النشر وعن طريق عينة من المنشور في (معجم المخطوطات المطبوعة) فإن الجهات التي تقوم بالنشر تتوزع على النحو التالي :

٤٩٪ للهيئات الرسمية في العالم الإسلامي .
٢٪ للهيئات التنصيرية والاستشرافية (وربما يكون لهم جهد انشط من قبل ، وعلى أي تقدير لن تزيد جهودهم عن ١٠٪ فقط) .
٤٨٪ للجهود الفردية .

باعتراف صريح بأنه يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأنواع في شتى بقاع الأرض ما يزالون يؤمنون برسالة محمد ويدينون به نبياً ورسولاً ... [ومن المعروف أن كيتاني هذا أرسل ثلاث حملات إلى مناطق الفتح الإسلامي عن نفقته الخاصة صورتها جغرافياً ويطوغرافياً ، وجمع كل ما كتب في ذلك العصر في اللغات اللاتينية والسريانية وغيرها وعمل كتابه (حوليات الإسلام) وصل فيه إلى ستة (أربعين) مجرية ، وكان يطبعه طباعة علمية : تجريبية توزع على العلماء والمستشرقين ، ثم يأخذ ملاحظاتهم ثم يعيد طباعته الأساسية .

ويقول الأستاذ شاكور : [... إنهم لم يخدموا إلا أنفسهم .. إن الاستشراق والسياسة والتنصير وجوه لعملة واحدة .. إن المستشرق إنسان فشل في أن يكون شيئاً ظاهراً في أمته ، أديباً ، فمصار مستشرقاً ..]

ماذا فعلنا بالتراث ؟

أما ماذا فعلنا نحن بهذا التراث فبيري المحاضر أننا أصبحنا على وعي بقيمتهم ، وأخذت القضية مكانها بين قضايانا المسييرية .. واهتمت بالتراث ميثاق ودوائر وجماعات وإدارات تحقيقاً ونشرأ :

فهناك حوالي (خمسين) مؤسسة ودارة وهيئة

مردود غير مقبول .
فحين جازنا الغرب ببشيشين :
كان الأول يقتصب الأرض واللؤلؤ ، والثاني يذهب في الفكر وإن ما تعانين الآن من انحراف فكري وتشكو منه هو بسبب دراسات المستشرقين ، وما استطاع المستشرقون أن يدرسوا علومنا وأحوالنا وفكرنا ويشروهوا إلا بهذه المخطوطات والآثار التي زعموا أنهم حموها لنا .. إنه عمل خبيث أخذ مثلاً ما كتب عن (الف ليلة وليلة) : إن أحد عشر مستشرقاً كتبوا عن (الف ليلة وليلة) غير الرسائل الجامعية وغير المترجمات إلى الألمانية والروسية والانجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات والمعزلة وإخوان الصفا هي الأعمال التي تمجد في التراث ويظهرونها لنا ويؤمنون أنها هي التبرار العقلاني . ثم فجأة يلفتوننا إلى الصلحج والسهورودي وابن عبد القدوس وابن المقفع وإلى الزندقة .. وأعجب :

كتب اختاروا الذين قتلوا بسبب الزندقة جميعاً وكتبوا فيهم ؟ وما كان للخرمية والبليكية والقرامطة هذه الميزة التي تبناها بعض المدعوين منا ، لولا دراساتهم لهؤلاء - وأحوا يلبون غلق النصوص ويستفرونها ليحملوا أمثنا أوزاراً كثيرة .
لولا تلك المخطوطات التي قرأوا منها تاريخنا : من أين يتسنى لهم أن يفعلوا ذلك ؟
ثم ينقل الدكتور الديب اقوال بعض الاساتذة والدارسين في شأن المستشرقين والتراث فيروي مقولة الدكتور محمود قاسم :

[... إنهم نقلوا المسلمين إلى أرسطو ، ونقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين] .
أما الدكتورة بنت الشاطبي بالرغم من أنها مدحت المستشرقين وشتمت من يجحد [... ما لهم من فضل على تراثنا] . لكنها بعد قليل قالت : [... تابع الكثيرون الأب لويس شيخو اليسوعي عن فئنة أو سذاجة أو تعصب] فانهت من شهيد للمستشرقين بالفضل متابعاً الأب لويس - الذي مدحهم - بأنهم مفتوتون أو سذج أو متعصبين .
وبعد أن عرضت لارتباط المستشرقين بالكنيسة والاستعمار قالت :

[... إن لم يكف هذا فاسمعوا شهادة واحد منهم بلغته .. هو المستشرق الإيطالي ، كيتاني ، الذي لم يتردد في تقديم كتابه (حوليات الإسلام)

وسائل الإحياء المنشودة ..

- وبعد التعرف على تراثنا وتوزيعه بين شرق وغرب ، يجب أن نذكر وسائل الإحياء المطلوبة لتراث أمثنا : ويرى الحاضر أنها يجب أن تتجه إلى ناحيتين :
- وقف العدوان على التراث كقيمة معنوية .
- العناية به كشكل ومضمون .
- فليس معنى الإحياء أن ينحصر في الشكل والقالب ، ونس المضمون ، فهناك عدوان على مضمون التراث يأخذ اشكالاً عدة ، منها الهجوم الصريح : إذ رُجد من



• صلاح الدين المسجد
• يد من خطة شاملة لي إطار عمل جماعي



• محمد شاكر من غير الممكن أن ينقل التاريخ فارغاً ...

■ إن المستشرقين نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين .. [الدكتور محمود قاسم]

■ إجراء دراسة حول هذه المخطوطات المطبوعة لتحديد اتجاهات النشر المعنية لمختلف العلوم وتحديد من يعمل داخل إطار وهدف من يعمل عشوائياً وتبين مستوى التحقيق وقيمتها .

■ عمل دراسة تقريبية عن المخطوطات وأماكن وجودها .

■ الاستعانة بالخبراء والمختصين لتحديد الموضوعات التي تطرح للمناقشة ليصار إلى وضع خطة زمنية تنفيذية لجمع تراثنا المخطوط في جميع أنحاء العالم مصوراً بالوسائل الحديثة عل أن يقسم العالم إلى مناطق بين الهيئات المختلفة تختص كل واحدة بمنطقة . وكل هيئة تضع امام الندوة - قبل بدئها - صورة كاملة لما قامت به من جمع وتصنيف وفهرسة وتحقيق ونشر حتى ينبي على ما سبق وليقوم هؤلاء الخبراء بوضع نظام موحد للفهرسة والتصنيف . ونظام لتبادل صور المخطوطات وفهارسها ووضع نظام لتيسير الانتفاع بهذه المصورات ، كما يقومون بوضع خطة لنشر التراث وتحقيقه بحيث يكون هناك اولويات للنشر يلاحظ فيها قيمة الكتاب والعصر الذي ينتمي إليه والفراغ الذي يملؤه .. ووضع جدول زمني لهذا النشر .. مع الاستفادة من كل إمكانات العصر الحديث من وسائل يمكن ان تختصر المدة الزمنية .

■ وضع دستور واضح لقواعد التحقيق من حيث طريقة التهامش والاقواس ونحوها وطريقة الفهرسة والإحالة للراجع وغيرها .

■ إصدار تشريع يمنع العبث بالمخطوطات ونشرها نشرًا غير علمي .

■ إنشاء معهد عال للتراث ليقوم بتخريج محققين متحرسين قادرين على الوفاء بما يتطلبه هذا العمل الجليل في فروع المعرفة كافة .. وقد كان مركز دراسات تحقيق التراث القومي بمصر نواة طيبة .

■ إنشاء مجلة او تطوير نشرات اخبار التراث حتى تصبح نصف شهرية تحفل اخبار المراكز والهيئات والافراد الذين يعملون في التراث .

■ النظر في وضع خطة للتمويل .

■ إتاحة المطبوعات المحققة للباحثين .

■ لا يدعى للندوة إلا من يقدم دراسة .

■ إننا نمتلك كل مقومات النهضة ووسائل استعادة المجد . تراثاً ومالاً وثروة ورجالاً وعلماء . فما الذي يمنع تكاتف الجهود وتأزرها لإعادة هذا التراث تياراً متواصلًا في حياة الأمة الإسلامية ؟ هل تظل القيادة الفكرية لبلاد المسلمين في أيدي طبقة منفصلة عن الأمة . غير أمينة . لا تستطيع تحريك الجماهير المرتبطة بتراثها ودينها !!

في إحدى المجلات الأسبوعية في دولة عربية كبرى . إن حرية الرأي حق للجميع ، لكنها ليست ملكاً للجميع . فمن حق الإنسان أن يؤلف كتاباً أو ينشر مثلاً . أو يصير مهندساً ، ولكن هل يقدر كل إنسان مؤلف أو ينشر أن يصير مهندساً ؟ ففي عصر التخصص لا يسمح لأحد أن يمارس عملاً إلا بشهادة وكفاءة وشروط مفتتح مستشفى أو مكتب هندي . ولكن علوم الدين والشريعة في ظل العدوان على تراثنا صارت ركدتها نهياً مشاعاً .. إن حرية الفكر وحرية البحث هي في الواقع ليست بحثاً ولا فكراً ولا رأياً . بل كبد وأي كبد .

في سبيل خطة شاملة

وفي نهاية المحاضرة أشار الدكتور عبد العظيم النقيب إلى محاولات قد بذلت لحماية صور وابعاد التراث من خلال خطة شاملة . وفي إطار عمل جماعي ، منها اقتراح تردد إبان انعقاد مؤتمر الجامع العلمي بدمشق (١٩٥٧م) من الدكتور صلاح الدين المنجد . ثم محاولة الندوة العالمية للأنشطة العلمية الإسلامية . وهو عمل يقوم على الجهود الشخصية والمؤسسات الخاصة . فلا تدعمه دولة او حكومة . ولم يكن خاصاً بالمخطوطات . وكان قليل الإمكانيات (١٩٨١م) ، وآخرها كانت كلمة من الدكتور إحسان النص في أحد أعداد مجلة معهد المخطوطات العربية (١٩٨٢م) ثم قال :

إنه لا بد من خطة محكمة . في تنفيذها وبمقدان التنسيق والتخطيط تبذل جهود كثيرة وتضعب ، فقد يصور باحث مخطوطة من مكان محدد وتقبض عنه أخرى للكتاب نفسه في مكان آخر ويحقق الكتاب ويخرج مشوهاً ناقصاً .. والأمانة على ذلك كثيرة .

دعوة لقيام ندوة التراث

وفي سبيل قيام هذه الخطة يقترح الدكتور النقيب قيام ندوة بعد لها إعداداً جيداً فيتم :

■ حصر الجهات العاملة في مجال التراث عن طريق استمارة معينة ترسل للجهات المعروفة .

■ حصر الكتب المنشورة من المخطوطات التي انتهت إليها (سركيس) أي إلى (١٩٢٦م) .

حذر من التراث والاتفات إليه والاستئناس به حيث يقول : [وإذا كانت البداية العلمية - لاحظ كلمة العلمية لتعرف اللون الأحمر للكتاب - تعني البدء بالواقع واعتباره هو المصدر الأول لكل فكر ، فإن القيم التي حوّاها التراث جزء من هذا الواقع ، فنحن مثلاً نئن تحت الإيمان بالقضاء والقدر الموروث من أهل السلف . وتفسير هزيمتنا بأنه لا يغني حذر عن قدر ..] .

وهي مقولات مغلوطة والمفترأ على الواقع . ففي ذهنه شيء ويريد أن يستدل له كذباً بواقع لم يكن . فلم يفسر أحد الهزيمة بالقضاء والقدر ولا الإيمان به .. وكل ما ظهر بعد لتكسة كان المطالبة بالعودة إلى الله وإصلاح النفوس والانتباه إلى الله واهب النصر .. وآخرون يدعون لقطع الصلة بالتراث ، كوسيلة من وسائل العدوان عليه . وذلك بكتابة العربية بالحروف اللاتينية .. على حين نرى شيوعياً هو شويين لاي يرفض استخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة الصينية - رغم صعوبتها وتعدد أوضاع حروفها قائلاً : [إن ذلك يقطعنا عن التراث] إننا إن لم نبق على لغتنا فلا تراث لنا !

ضرورة المواجهة ..

لقد ظهرت قولتين في كثير من الدول تحمي تراثها وأشكالها المختلفة من كتاب أو آثار او مصنوعات قديمة او مسكوكات . وحرمت بعض الدول امتلاكه تحريماً قاطعاً وأصبح الانتقال بأي من عناصر هذا التراث من دولة إلى دولة جريمة .

لكن مع أهمية كل هذا الجهد وبذله في سبيل المحافظة على التراث . فإن بقاءه لنا جسداً لا حياة فيه ولا روح ولا أثر . مجرد حثية أو زينة أمر خطير . عندنا تراث فلهي وثروة تشريعية هائلة أصبحت لغرضاً للجاهلين والحاقدين والمعتدين الذين يعتقدون على تراثنا ويتكبرون من شرع الله . فتارة يزعمون أن اعتمادهم اجتهاد ، وأخرى يقولون إن ما يبثونه من سموم فكرية هو حرية للراي .

هذا العبث بتراث الأمة يجب ان تتجدد له الشرطة ولا يكتفى فقط في برد العلماء . فلا يمكن أن نرى من لا يحسن تلاوة آية . فيخترع فقهاً جديداً ويمسخ كل ما قدمه الأئمة طرالم تاريخنا . فيفسر القرآن كما يريد ويضعف السنة ويقل منها ما يحلو له كما حدث مؤخرًا